

البلاغة و الأدب

من صور اللغة إلى صور الخطاب

د . محمد مشبال



البلاغة والأدب

من صور اللغة إلى صور الخطاب

البلاغة والأدب

صور اللغة إلى صور الخطاب

د. محمد مشبال

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

مشتبال، محمد.

البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب / محمد مشتبال.

الإسكندرية؛ دار العين للنشر، ٢٠١٠

ص؛ سم.

تدمك؛ ٠٤٤٠ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- البلاغة العربية

أ- العنوان

٨١٩

رقم الإيداع / ٤٩٨٧ / ٢٠١٠

البلاغة والأدب

من صور اللفظ إلى صور الخطاب

د محمد منيبال

الطبعة الأولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨.٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨.٩٥٥

WWW.elampublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ د أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يسونس

أ د مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د فاطمة البودي

الغلاف: بسمة صلاح

رقم التذاع بدار الكتب المحسرة به: ٢٩٨٧ / ٢٠١٠

ISBN 978 9 90 011 0

المحتويات

9	مقدمة: ما البلاغة؟
15	1 - عن تحولات البلاغة
15	- قدر البلاغة
17	- الحجاج والتخييل
20	- انشطار البلاغة
32	- محنة البلاغة
35	- تحولات البلاغة
49	2 - عن البلاغية:
	بين بلاغة الأدب وبلاغة الحجاج
50	- عن التحليل البلاغي الحجاجي
55	- موضوع البلاغة: بين النص الأدبي والوظيفة الأدبية
65	- البلاغية والأدب

- 71 3 - البلاغة العربية وصور الخطاب
- 73 - البلاغة العربية القديمة وحقل السمات
- 83 - البلاغة العربية الحديثة: نحو بلاغة النص الأدبي
- 83 1 - البلاغة الموسعة
- 87 2 - نحو بلاغات نوعية
- 88 2 - 1 - عن مفهوم السمة
- 93 2 - 2 - عن مفهوم الصورة
- 99 4 - نحو بلاغة أدبية
- 99 - أكثر من بلاغة
- 102 - في نقد البلاغة النظرية أو النظرية البلاغية القديمة
- 118 - نحو بلاغة أدبية
- 119 1 - البلاغة فن
- 120 2 - التفسير والتأويل
- 122 أ - علاقة اللغة بالأفكار
- 122 ب - السياق
- 124 3 - المعاني والقيم
- 126 4 - بلاغة النص: من المحسنات إلى السمات
- 129 - جوهر البلاغة: تلازم التصوير والحجاج

133	5 - في نقد مقاربات بلاغية
133	-- بلاغة الرواية وسلطة البعد الجمالي
144	- السرد والتخييل الشعري
149	خلاصة

مقدمة

ما البلاغة؟

نعرف أن هناك أكثر من تحديد للبلاغة⁽¹⁾، لكن ما يميز المقاربة البلاغية من غيرها من المقاربات النصية هو أنها تنظر إلى النص من زاوية تأثيره في المتلقي؛ تتحرك البلاغة في هذه المسافة بين النص والمتلقي؛ تتساءل عن كفاءات التأثير فيه جماليا وتداوليا. وبذلك يتداخل في التحليل البلاغي ما هو جمالي أو نصي داخلي، بما هو إيديولوجي وتداولي. لكن تاريخ البلاغة لم يكن في جميع الأحوال مؤيدا لهذا التداخل؛ فهناك من يقيد بها بدرس ما هو إقناعي في النص (بلاغة الحجاج)، وهناك من يحصرها في درس الوجوه والصور التي تحسن النص وتزينه (بلاغة الأسلوب).

وقد وجدنا معظم البلاغيين المعاصرين في الغرب ينعت "بلاغة الأسلوب" بالانحراف عن بلاغة الخطاب التي شيدها أرسطو قديما، تلك البلاغة التي لم تحتف بالأدب بقدر احتفائها بالنصوص ذات البعد التداولي. يستند هؤلاء إلى تحديد أرسطو للبلاغة التي ربطها بالخطاب

Michel Meyer, Questions de rhétorique : langage, raison et séduction, (1)
Le livre de poche, 1993.

الإقناعي⁽¹⁾؛ أي إن موضوعها الخطابة أو الكلام الفعال الذي يؤثر في المتلقي تأثيراً عملياً. تهتم البلاغة بوظائف الكلام وليس ببنيتها؛ فلا يعنيه الشكل اللغوي، إلا من حيث هو وسيلة في خدمة التواصل. من هنا فهي تدرس الوسائل التي تكفل بلوغ الإقناع بما ينطوي عليه من وظائف الإفادة والتأثير والإمتاع⁽²⁾. فهل يعني هذا أن البلاغة عند أرسطو لا شأن لها بالأدب من حيث هو كلام جميل غير وظيفي بالمفهوم التداولي؟! ولكن هل يوجد هذا الأدب غير الوظيفي أو الذي لا يسعى إلى توصيل رسالة أو الذي لا يروم الإقناع؟

يذهب المنظرون الغربيون إلى أن البلاغة عندما أصبحت في تحولاتها التاريخية مرادفة للشعرية أو الأسلوبية، فقدت أهم مكون يحدد مجالها وهو اعتبارها نظرية في الخطاب الفعال؛ كان ذلك نتيجة ربطها بالأدب بوصفه كلاماً جميلاً لا يضطلع بوظائف خارجية. لا يمكن البلاغة أن تنطوي على هذا التصور الجمالي المغلق للأدب دون أن يؤدي ذلك إلى تقويضها. لا بد لها إذن لكي تسوّغ درسها للأدب أن تقوم على تصور تواصل وظيفي للنص الأدبي؛ أي عليها أن تنظر إلى الأعمال الأدبية من منظور المفهومات الأساس التي قامت عليها النظرية البلاغية في الأصل؛ مفهومات المقصدية الواضحة والمعنى الوحيد والإقناع.

من هنا كان من الضروري التنبيه في هذا التقديم، إلى أن اقتران البلاغة بالأدب -كما هو مثبت في عنوان الكتاب- ليس أمراً واضحاً

Aristote, Rhétorique, LGF, 1991, P.82.

(1)

Tzvetan Todorov, Splendeur et misère de la rhétorique, in Théories du symbole, ed. Seuil, 1977. p. 59.

(2)

كل الموضوع؛ فلفظ البلاغة في استخداماته القديمة والحديثة لا يخلو من التباس ناجم عن تعدد دلالاته وتحدياته. كما أن اقترانه حديثاً بأجناس أدبية سردية وبأنماط تعبيرية مستحدثة وبمجلات إعلامية وتواصلية وفنية سيميائية من قبيل الإشهار والسينما والتصوير الفوتوغرافي والتشكيل والموسيقى والاقتصاد والجنس، أسهم في التباس مدلولها وفي غناه. من هنا اتجهت غايتنا إلى الوقوف على جوهر البلاغة الذي يسوغ تعدد استخداماتها لوصف وتفسير خطابات تبدو متعارضة في بنياتها ووظائفها؛ أي إن البلاغة لا تعدم أن تستوعب كلا من الخطابين التداولي (الخطاب السياسي والديني والقضائي والإشعاري) والتخييلي (الأدبي والفني).

يكمن هذا الجوهر في التصور التواصلية للأعمال الأدبية⁽¹⁾. لا يوجد أي اعتراض عندما نربط البلاغة بالأعمال الكلاسيكية، لأن الأدب في هذه المراحل كان ذا طبيعة مزدوجة⁽²⁾؛ كان الشاعر والسارد القديم يمتعان ويفيدان في الآن معاً. لم يعرف الأدب مفهوم الوظيفة الجمالية المستقلة إلا في العصور الحديثة. من هنا حام الشك حول البلاغة وضرورة استمرارها في وصف وتأويل خطاب جمالي لا يتوجه إلى المتلقي برسالة محددة وواضحة؛ خطاب يحيل إلى سياقه الداخلي الذاتي.

لكن هل يوجد بالفعل هذا الخطاب المستقل بذاته بشكل مطلق؟ يبدو أن الارتباب الذي أثير منذ فترة حول مفهوم الأدب الخالص أو اللازم قد أعاد الحديث عن العلاقة بين البلاغة والأدب على نحو مختلف.

Kibédi Varga, Discours et Récit, in Rhétoriques. Sémiotiques, (1)

Revue d'Esthétique, n°1-2 1979. p.(374-381).

Michel Meyer, Langage et Littérature, PUF, 1992. P.170. (2)

والحق أن فصل أرسطو بين البلاغة والشعرية في مؤلفين مستقلين، كان مسئولاً عن حصر البلاغيين الجدد للبلاغة في درس الخطاب الحجاجي دون الأدبي، وكأنهم بذلك وجدوا سنداً تاريخياً يعزز تصورهم في خضم التجاذبات التي عرفها مفهوم البلاغة حديثاً. لكن التاريخ يقول لنا أيضاً إن البلاغة ارتبطت في مراحلها القديمة والحديثة --عربياً وغربياً-- بالكلام الجميل غير الفعال الذي تجسد شعراً ونثراً. فهل نصف هذا الارتباط بالخطأ التاريخي والانحراف والشذوذ؟!

ومن جهة أخرى، يبدو أن اقتران البلاغة بالأدب من المسلمات التي تستغني عن أي إثبات؛ فلفظ البلاغة ينطوي في ذاته على دلالات الإبلاغ الجميل وحسن التعبير والجودة؛ يقول أبو حيان التوحيدي: "أما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد، بالوزن والبناء والسجع والتقفية والحلية الرائعة، وتخير اللفظ. وهذا الفن لخاصة الناس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام⁽¹⁾". وهي أوصاف اقترنت بالأدب، مهما تباين وجهات النظر حول ماهيته، ومهما توجد تلك الأوصاف خارج الأعمال الأدبية تحديداً.

وبناء على هذا التصور الأدبي للبلاغة، انخرط البلاغيون في رصد الصور وتصنيفها في قوائم؛ وقد بلغ عددها عند الغربيين مائتين وخمسين صورة وفق ما ذكر جون كوهن، وقد أحصى ابن أبي الإصبع المصري في البلاغة العربية مائة وثلاثة وعشرين باباً.

(1) المقابسات، دار المدى، 1986، ص. 92.

فهل نحصر موضوع البلاغة في دراسة هذه الصور المحدودة أو المقننة؟

يقف هذا الكتاب أيضا على إشكال البلاغة بين اعتبارها نموذجا كلياً، وبين اعتبارها بلاغات نوعية خاصة. هل كان سعي النماذج البلاغية إلى ضبط الكليات في صالح بلاغات النصوص والأنواع الأدبية؟ أي هل يمكن الحديث عن مشروعية وجود بلاغة كلية قادرة على النمذجة الصارمة للبلاغات النوعية المختلفة؟

إذا ما حصرنا مناقشتنا هنا في "النماذج البلاغية" بالمعنى الضيق للكلمة، دون النماذج النظرية الأخرى التي خاضت بشكل أو آخر في بلاغة النص الأدبي، فيمكن القول إنها ترى في مبدأ الانزياح روح البلاغة وجوهر البلاغية. بيد أن هذا المبدأ لا يصلح معياراً لتحديد أو تفسير بلاغات أنواع أدبية لا تعتمد البنية اللغوية مقوماً حاسماً في تكوينها. إنه مفهوم قاصر عن تمثيل وتفسير البلاغية في تنوع أنماطها وتأثيراتها. على هذا النحو فإن اقتراح نماذج بلاغية عامة وكلية صارمة لا يمكنه أن يفي بحقوق البلاغات الخاصة. فأرسطو لم يصغ بلاغة عامة بل اقترح نموذجين بلاغيين؛ نموذجا للخطابة ونموذجاً آخر للتراجيديا أسماه "فن الشعر" أو "الشعرية". أما حازم الذي كان يرى في البلاغة علماً كلياً يستوعب الشعر والخطابة، فقد صاغ نموذجا بلاغياً مستمداً من النص الشعري دون أن يزعم تعميمه على أنماط القول الأخرى، ولعله لو تصدى للخطابة لكان قد اهتمدى إلى نموذج بلاغي آخر يغني به نمودجه البلاغي الشعري. إن وصف حازم للبلاغة بالعلم الكلي لا يعني أن هناك بلاغة عامة تجري على جميع أنماط القول

والأنواع الأدبية، ولكنه يعني أنه لما كانت جميع هذه الأنماط والأنواع تتسم بالبلاغة؛ أي تتفق في الوظيفة التأثيرية، فإن ذلك يسوغ قيام علم مشترك لدراستها مع مراعاة خصوصياتها.

ويبدو أن النماذج البلاغية الحديثة انزلت إلى التعميم المخل بخصوصية البلاغات الأدبية التي تجسدها النصوص والأنواع. وقد تظن أصحاب هذه النماذج إلى أن البلاغات العامة لا تتسع لجميع أنماط الخطاب الأدبي، فلجأوا إلى التوسيع؛ فجماعة ليبج اقترحت نموذجاً لبلاغة السرد، كما أنها حاولت استشراف آفاق بلاغة النوع على نحو ما صنعت في كتابها اللاحق "بلاغة الشعر". وقد حاول أيضاً "هنريش بليت" توسيع مفهوم الملفوظ البلاغي واقتراح نموذج بلاغي سيميائي يستوعب مستويات تخرج عن النطاق الضيق للسانيات؛ إنه نموذج تصنيفي وظيفي إلى جانب كونه نموذجاً توليدياً يفسر به طبيعة الملفوظ وتعدد وظائفه. غير أن ربطه البلاغة بمجموعة من العمليات اللسانية التي تتحدد في مقولة الانزياح، لا يمكن أن يمثل جوهر البلاغة في جميع أنواع الخطاب التخيلي. ويظل الأدب بأجناسه وأنواعه يفرز بلاغات متنوعة لا تربطها بالبلاغة العامة إلا مجموعة من المبادئ العامة كفيلة بتسوية إطلاق لفظ البلاغة على درس جميع أنواع الخطاب المؤثر كما صنع حازم، ولكن لا يمكن أن توجد هذه البلاغة العامة المتحدثة باسم البلاغات الخاصة.

هذا مجمل الأفكار التي يسعى الكتاب إليها بالتفصيل.

البلاغة و الأدب

لا يمتلك لفظ "البلاغة" دلالة مطلقة. وقد كانت إحدى غايات هذه الدراسة للباحث المغربي محمد مشبال السعي إلى تحديد مبدأ عام يسوغ استخدامه على نحو محدد يردم الانشطار الذي قصم النظرية البلاغية إلى اتجاهين متعارضين؛ يُعنى أحدهما بصور الأسلوب، بينما يُعنى الثاني بمظاهر الحجاج.

محمد مشبال، أستاذ النقد والبلاغة وتحليل الخطاب في كلية الآداب تطوان المغرب، ومنسق فرقة البحث في "البلاغة وتحليل الخطاب" التابعة لمدرسة الدكتوراه بالكلية المذكورة. من مؤلفاته: (مقولات بلاغية في تحليل الشعر، 1993) و(أسرار النقد، مكتبة سلمى تطوان، 2002) و(بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق 2006) و(البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق 2007) و(الهوى المصري في المخيلة المغربية، منشورات بلاغات القصر الكبير، 2007) و(البلاغة والسرد، كلية الآداب تطوان، 2010).

